



هند الحضرمية

منطقة تحت المجر

إن نوع الصدام الذي يُستهل به مقال الكاتبة منى دياب «الحضارات صدام أم حوار، جدليات التطور الدائم» (مجلة التسامح - التفاهم عدد ٧) ليس يفهم منه أنه الصدام ذاته الذي نظر له هنتجتون عن صراع الحضارات الغربية ضد الشرقية فحسب، وإنما هو أيضاً محاولة أوروبا التمايز بثقافتها ضد الثقافة الأمريكية، ويفهم من ذلك أن بواد صدام ثقافي غير أمني تعيشه القارتان، وتسعى أوروبا لمحاصرته فكرياً وثقافياً، يأتي بعد ذلك صراع الأضداد، الحضارات التي تختلف جذرياً من حيث التاريخ والبني الفكرية والدينية والاقتصادية وهي حضارات الشرق والغرب وخلفيات هذا الصدام في مقابل محاولات الحوار العالمي.

لأن تكون لها إدارتها المستقلة، بالإضافة إلى سعي قوات الانتداب على استخدام الأقليات لمواجهة الحركات النائرة ضدها، الأمر الذي أزم الأوضاع وخلق جواً مليئاً بالنزاعات في المنطقة. وفي خضم هذه الظروف حلم العرب بتحقيق وحدة عربية، وهنا جاء مشروع الجامعة العربية كخطوة أولى في سبيل تحقيق هذه الوحدة. لم يكن إنشاء الجامعة العربية نهاية لمشاكل الشرق الأوسط، ففي عام ١٩٤٧ صدقت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين إلى دولتين (إسرائيل وفلسطين)، وتمّ تنفيذ ذلك بعد انسحاب الانتداب البريطاني من فلسطين في العام التالي. وقد أدى زرع مجتمع دخيل في المنطقة إلى زعزعة استقرارها، ولئن تجدي أي حلول سياسية أو جغرافية لحسم هذا الصراع، لأنه في جوهره صراع ديني.

الشرق الأوسط اليوم يبدو ضائعاً ومشتتاً، ولئن تجدي برأيي أي حلول خارجية لا تتوافق مع متطلبات مجتمعاته، وليس من الخطأ الاستفادة من النماذج التي سيجر خلفه الخيبات هو تطبيق نموذج تقدمي بدون تطويعه ليتناسب مع ظروف المجتمع، فأغفال خصوصية المجتمع هو سبب فشل الكثير من المشاريع التنموية. متى يصل الشرق الأوسط لمرحلة الاستقرار؟ ومتى تنتهي كل الصراعات القائمة فيه؟ تبدو لي الإجابة عن هذه الأسئلة ومثلها كثير ضبابية لا تكاد تبين، فرغم أن المسألة الشرقية انتقلت لتتمحور حول أنابيب النفط وتوسعت بشكل كبير، إلا أن منبع القضية ما يزال مرتبطاً بالتواجد الإسرائيلي في المنطقة، فمثلما يصبح الجسم الغريب على الجسم عدواً خطراً على الخلايا ومصدراً للأمراض، فإن هذا الكيان المضطرب سيظل مصدرًا لمشاكل لا تنتهي في المنطقة.

مماثلة للإدارة الأوروبية ومن ثم اختيار شكل لدستور الدولة (هل يجب أن يكون نظاماً مركزياً أم نظاماً لا مركزياً؟) وفي أثناء هذا النقاش تكونت جماعة سرية أطلق عليها «تركيا الفتاة» وعلى أعضائها «الأتراك الفتان» كثفوا جهودهم وأصبحوا الحزب الحاكم في تركيا، ونادوا بالقومية وهيمنة المسلمين الناطقين بالتركية فقط. رأى دعاة القومية في تركيا أن مؤسسات الإسلام يمكن أن تقف عائقاً أمام عملية تغريب تركيا وبالتالي فإن التقدم المنشود سيواجه جملة من التحديات، ولكن من غير الممكن إيقاف دور هذه المؤسسات بعد أن أصبح الإسلام روح المجتمع التركي، فكان الحل هو الانسلاخ التدريجي لكي تتمكن تركيا من مواكبة التقدم الأوروبي. وقد كانت النتيجة زوال الإمبراطورية العثمانية في مطلع يونيو ١٩٢٢، وفي ٢٩ أكتوبر ١٩٢٣ تأسست الجمهورية التركية وعاصمتها أنقرة، وفي ٣ مارس ١٩٢٤ تمّ إلغاء الخلافة الإسلامية.

بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية اقتسمت أملاكها بين بريطانيا وفرنسا باعتبارهما قوى عظمى مسيطرة على المنطقة وتمّ الاقترام نتيجة صفقة أبرمت في ١٩٢٢ لإقامة دولة تركية قومية اقتصر على الجزء الناطق بالتركية فقط من الإمبراطورية العثمانية. بعد هذا الاقترام انتهت مسألة الشرق الأوسط بالنسبة لأوروبا بعد أن أصبح هذا الشرق منطقة نفوذ لبريطانيا وفرنسا، ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة فإذا كان انهيار الإمبراطورية العثمانية قد وضع حداً لمسألة الشرق الأوسط إلا أنه خلق العديد من المشكلات الشرق أوسطية. ولعل أبرز هذه المشكلات هو تززع استقرار المنطقة وانتشار القومية وزيادة درجة الصراعات المذهبية الطائفية، فبعد أن كانت هذه الشعوب خاضعة تحت حكم إدارة واحدة «الإمبراطورية العثمانية»، أصبحت كل طائفة فيها تسعى

نجم الحضارة الأوروبية، إثر قيام الثورة الصناعية التي جعلت لها السيادة العالمية، وقد تعايشت الحضارة الأوروبية مع حضارات أقدم منها، بعضها مستسلم للواقع الذي هي فيه وبعضها الآخر يحاول النهوض من جديد واسترجاع القوة والهيمنة مثل الإمبراطورية العثمانية، التي ظلت متمسكة بنظامها الاقتصادي الذي لا يعترف بملكية الأفراد، والذي أصبح نظاماً بدائياً مقارنة بالنظام الاقتصادي الحديث في أوروبا. وقد كان للسياسة المتحفظة دور في جر الإمبراطورية العثمانية للخلف، في حين عمدت أوروبا إلى دفعها إلى التطور غير الموزون الذي يحاول تقليد النموذج الأوروبي، وقد زين لهم بأنه نموذج مثالي، فقد نادت نظريات الحداثة أن التقدم الذي تشهده المجتمعات سيتحقق إن هي أخذت بالمنهج التقدمي الأوروبي. غير أن هذا السعي نحو التقدم لم يكن متوافقاً مع المتطلبات الداخلية للمجتمعات غير الأوروبية لهذا لم تزد تلك المجتمعات إلا تخلفاً، وهنا ظهر مسمى «دول العالم الثالث» ليدخل في دائرته كل الدول التي لم تستطع الوصول للخط التقدمي الذي رسمته الحضارة الأوروبية.

وقد دفع الاستعمار الأوروبي الدول المستعمرة إلى عملية التغريب وهي محاولة لتطبيق النموذج الغربي، ولكن تبين لهذه المستعمرات فيما بعد فشل هذا النموذج في بلدانها وفي الوقت ذاته كان من الصعب عليها العودة إلى ما قبل التبعية، وبهذا أصيبت هذه المجتمعات بتصدع وانشقاق داخلي.

ويمكننا توضيح هذه العملية بمحاولة الإمبراطورية العثمانية في استرجاع قوتها، فقد رأت أن أوروبا تفوقت عليها في الجانب العسكري فقط فكان الحل هو تقليد النموذج العسكري الأوروبي وتطبيقه في تركيا ثم سعوا إلى تحديث الإدارة لكي تكون

رغم كل القضايا التي يضح بها عالمنا، لكن الشرق الأوسط بقضاياها التي تبدو وكأنها تتوالى واحدة إثر الأخرى، لا تكاد تنحل واحدة منها حتى يولد من رحمها مشكلات أخرى تأخذ النصيب الأكبر من اهتمام المجتمع الدولي. ولكن كيف ولدت قضية الشرق الأوسط؟ وكيف تطورت؟ هذا ما يحاول شفيق محسن طرحه في مقاله المعنون بـ «نظرة جديدة للمسألة الشرقية».

اختلفت الآراء حول قضية الشرق الأوسط، من حيث بداية تشكلها وماهيتها وجوهرها، فهناك من يرى أن المسألة الشرقية بدأت منذ انهيار الإمبراطورية العثمانية، التي بدأت منذ القرن التاسع عشر بالتفكك نتيجة ظهور قوى عظمى سعت إلى الإطاحة بها، بالإضافة إلى تشكل القوميات داخل هذه الإمبراطورية. وهناك من يرى أن هذه المسألة انتهت بانتهاء هذه الإمبراطورية، في حين وسع البعض نطاقها لتعبر عن صراع حضارات الشرق والغرب. وقد عرفها رينيه غروسيه بأنها مشكلة العلاقات بين أوروبا وآسيا، التي كانت تدور رحاها في ساحات المعارك بشكل دوري، بالإضافة إلى كونها مشكلة ثقافية منذ القدم.

ويرى Dimitri Kitskhis أن منطقة الشرق الأوسط من الأهمية بمكان بحيث تناهست عليها مختلف القوى لكي تضمها إليها وتوحدها ضمن إمبراطورية واسعة، لذا غزاها الفرس والإسكندر ومن بعدهم العثمانيون ثم القوى الأوروبية بالإضافة إلى ظهور المصالح الروسية. وبالنسبة لآرنولد توينبي فإن «المسألة الشرقية المزعومة» هي مسألة غربية نتجت عن حدوث خلل في الحضارة الإسلامية، وأن هناك ثلاث أطروحات تحكمت في مسار هذه المسألة وهي (المسيحية، الإسلام - آسيا، إفريقيا، أوروبا - حضارة، بربرية). وفي مطلع القرن التاسع عشر برز